بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

الحمد لله.

مؤذن على حجر.

على صحراء قاحلة، قل فيها بنو البشر، فلا تكاد ترى الشجر، بل وينعدم فيها النهر، حرارةٌ تلف أجواء المكان بين التراب والرمس، وبين أودية سحيقة يُسمع بين ثناياها صوت من هنا، وركز من هناك، يقف مؤذن بأذان غريب، يصعد على حجر يتهيأ للنداء، تنخفض له رؤوس الجبال، وترتفع له البوادي والقرى، فيقول بصوت: أيها الناس، إن لله بيتًا فحجوه، إنها تلبية أمر الله يوم قال لإبراهيم: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ الحج: ٢٧، قال ابن عباس: " قال إبراهيم: كيف أقول يا ربّ؟ ومَا يبلغ صوتي؟ قال: أذّن وعليّ البلاغ. فقام إبراهيم خليل الله على الحجر، فنادى: يا أيها الناس إن لله بيتًا فحجوه. لم

يسمعه يومئذ من إنس، ولا جنّ، ولا شجر، ولا أكمة، ولا تراب، ولا جبل، ولا ماء، ولا شيء إلا قال: لبَّيك اللهم لبَّيك" [1]، كم أتى إليها من مسافر على قدميه، وكم قطعت الجمال الفيافي والقفار، فلم تصل لبطون مكة إلا هزيلة أضناها السفر، وقد وصف الله هذا الصورة الجلية بقوله الصدق، في غيبه الحق:﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾الحج: ٢٧، يأتوك رجالًا: أي مشاة، يمشون على أرجلهم. وليس المقصود الرجال الذكور، لأن من يأتي إلى الحج الرجال والنساء، وإنما يأتوك راجلين غير راكبين، وكان ابن عباس لما قرأ يقول: "لم آس على شيء فاتني إلا ألا أكون حججت ماشيًا"[2]، وعلى كل ضامر: أي: منهم من يأتي ماشيً، ومنهم من يأتي على الضامر، وهو البعير المهزول الذي أتعبه طول السفر، بدليل قوله: (مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)، من كل طريق بعيد،

---

(١) وهي مجموعة آثار أخرجها ابن جرير في التفسير بهذا المعنى.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير.

"وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد"[1].

أطول عبادة بدنية.

أطول عبادة بدنية من حيث المدة وتنوع الأعمال، يجتمع فيها الذكر، والدعاء، والطواف، والسعي، والوقوف، والرمي. ومن أداها مخلصًا متبعًا هدي النبي ﷺ عاد طاهر القلب والصحيفة من الذنوب، «مَنْ أَتَى هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَع كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

ما أريد به وجه الله يبقى.

ركن عظيم من أركان الإسلام، جمع الله فيه بين جلالة العبادة وشرف المكان، فشرعه في أطهر بقاع الأرض وأكرمها. في تلك الأرض المباركة رفع إبراهيم

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم (١/٥٢).

عليه السلام قواعد بيت الله، فأبقى الله أثر بنائه عبر القرون؛ ليبقى شاهدًا من شواهد التاريخ، حيث تعلمنا الكعبة أن ما أريد به وجه الله يبقى، وعلى أن العمل الذي يدوم وينفع صاحبَه هو ما كان خالصًا لله.

شعار التوحيد.

يبدأ الحجاج نسكهم بإظهار التوحيد وتجديد العبودية لله، فيرفعون أصواتهم بالتلبية المعلنة لإخلاص العبادة له وحده ونفي الشريك عنه: «لبيك لا شريك لك»، حيث سماها جابر لما قالها النبي ﷺ بإهلالة التوحيد.

تربية على كبح الهوى.

ثم يدخلون في الإحرام الذي يربي النفس على مجاهدة الهوى وكسر رغباتها، فيمتنع المحرم عن جملة من المباحات؛ فلا يلبس المخيط، ولا يتطيب، ولا يأخذ من شعره أو أظفاره، ليعتاد القلب الانقياد لأمر الله وتقديم مرضاته على شهوات النفس.

شؤم المعصية.

في الحجر الأسود عبرة تذكر العباد بعظيم أثر الذنوب وشؤم المعاصي، فقد نزل من الجنة شديد البياض والنقاء، ثم غيرت خطايا بني آدم لونه، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم»[1]. فإذا كان أثر المعصية قد بلغ حجرًا جامدًا، فكيف أثرها على القلوب.

وسوسة بين المشاعر.

في رمي الجمار تذكير بعداوة الشيطان القديمة لبني آدم، فقد اعترض إبليس إبراهيم عليه السلام مرارًا ليصده عن تنفيذ أمر الله بذبح ابنه إسماعيل، فكان الخليل يرميه بالحجارة إظهارًا لعداوته واحتقارًا له حتى ساخ في الأرض[2]. وتكرار ظهور الشيطان لإبراهيم تنبيه للمؤمن

---

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه.

(٢) عن ابن عباس، أخرجه ابن خزيمة والحاكم.

أن إبليس لا يمل من الوسوسة والإغواء، بل يعاود الإنسان في مواطن كثيرة ليصرفه عن طاعة ربه.

من كل فج عميق.

والحج إعلام بأن الإسلام هو الدين الحق، إذ يجتمع فيه المسلمون من شتى بقاع الأرض على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وطبقاتهم، فلا تكاد تخلو دولة من دول العالم من وفود حجاجها، إذ يبلغ عدد دول العالم نحو مئةٍ وخمسٍ وتسعين دولة معترفٍ بها دوليًا، ويشارك في الحج حجاج من نحو مئةٍ وستين إلى مئة وثمانين دولة سنويًا، فصدق العظيم يوم قال: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، في مشهد عظيم يدل على عالمية الإسلام ووحدة أهله.

فقه التيسير.

إنَّ هذا البيتَ يهفو إليه الناسُ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، فمئاتُ الملايينِ من المسلمين يتطلَّعون إلى أداءِ فريضةِ الحجِّ، وقد توافرت لديهم الاستطاعةُ الماليةُ والبدنيةُ للوفودِ إلى البيتِ العتيق. غيرَ أنَّ القدرةَ

الاستيعابيةَ للمشاعرِ والمرافقِ ووسائلِ النقلِ لا تكفي لاستيعابِ جميعِ الراغبين، مما استدعى - من جهةِ المصالحِ الشرعيةِ - تنظيمَ أعدادِ الحجاجِ، دفعًا للضررِ ودرءًا للمفسدةِ الناشئةِ عن الازدحامِ وتجاوزِ الطاقةِ الاستيعابية.

وعليه فقد اطَّلعت هيئةُ كبارِ العلماءِ على تقاريرِ الجهاتِ المنظمةِ لشؤونِ الحجِّ، وأكَّدت في بيانها أنَّ الإلزامَ باستخراجِ تصريحِ الحجِّ مبنيٌّ على ما قررته الشريعةُ من التيسيرِ على العبادِ ورفعِ الحرجِ عنهم، وأنه داخلٌ في تحقيقِ المصالحِ الشرعيةِ ودرءِ المفاسدِ، إذ جاءت الشريعةُ بتحصيلِ المصالحِ وتكثيرِها، وتقليلِ المفاسدِ ودفعِها.

كما بيَّنت أنَّ الالتزامَ باستخراجِ التصريحِ يُعدُّ من طاعةِ وليِّ الأمرِ في المعروف، وأنَّ هذه الطاعةَ تُثابُ إذا التُزِمَ بها، ويأثمُ من خالفَها إذا ترتَّب على مخالفته تعدٍّ أو

مخالفةٌ للنظام. كما يُعتبر من لم يتمكن من الحصول على تصريحٍ في حكمِ غيرِ المستطيعِ للحجِّ في ذلك العام.

وتشرَّفت المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها بخدمة الحرمين الشريفين وقاصديهما، فاعتنت بتيسير شعيرة الحج، وواكبت الزيادة المتنامية في أعداد الحجاج بمشروعات توسعةٍ وتطويرٍ عظيمة للحرمين والمشاعر ووسائل النقل والبنية التحتية. وقد غدت المملكة نموذجًا رائدًا في إدارة الحشود وتنظيمها، من خلال التكامل بين الجهات الأمنية والصحية والخدمية والتقنية؛ بما يعين الحاج على أداء نسكه بأمنٍ ويسرٍ وطمأنينة، ويعكس ما توليه هذه البلاد المباركة من عنايةٍ بضيوف الرحمن وخدمةٍ للإسلام والمسلمين.

وإن مما يُذكر فيُشكر ما تبذله القيادة الرشيدة بقيادة خادم الحرمين الشريفين سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، وسمو ولي عهده الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، من جهودٍ متواصلة وعنايةٍ عظيمة بخدمة

الحجاج والعُمّار، سائلين الله أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يبارك في جهود جميع العاملين على خدمة ضيوف الرحمن.

وَالله وليّ التوفيق

٢٧ / ١١ / ١٤٤٧ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد